أحمد بن محمد بن الحاج التلمساني

(ت 930 هـ)

و كتابه "أنيس الجليس

في جلو الحناديس[1] عن سينية ابن باديس"

أ.د. الشريف مريبعي – جامعة الجزائر 2

المؤلف:

لا تذكر كتب التراجم ترجمة وافية لأحمد بن الحاج التلمساني، فكل الذين تعرضوا لحياته في كتبهم اكتفوا بإشارات بسيطة، وذكروه عرضا، كأحمد بابا التنبكتي2، وأبي القاسم الحفناوي3، والشفشاوني محمد بن عسكر الحسيني4، ويستثنى من هؤلاء ابن مريم الذي خصه في كتابه "البستان"5 بنحو ست عشرة صفحة، عرض فيها لجانب من حياته، وأشياخه وتلامذته وأدبه، إلا أنه اهتم أكثر بأخلاقه وصلاحه وتصوفه وإعراضه عن الدنيا.

وابن الحاج هو أحمد بن محمّد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد بن عبد الله المناوي، الورنيدي نسبة إلى قبيلة بني ورنيد بتلمسان، عرف بابن الحاج وتوفي في سنة (930 هـ). وهو غير ابن الحاج محمد بن محمد الفاسي المغربي صاحب كتاب السحر والطب الشعبي المعروف بـ "شموس الأنوار وكواكب الأسرار".

عاش أحمد بن الحاج في بداية حياته بموضع يقال له: اثلاثن أوليلي6، ثمّ ارتحل إلى وادي بيدر7 وسكن مع أهله بموضع يقال له بنو إسماعيل8 أو بنو سمّيل، وهذه كلها مواضع معروفة إلى اليوم بتلمسان.

ويذكر ابن مريم أن ابن الحاج تتلمذ للفقيه المعروف أحمد بن محمّد بن زكري التلمساني (ت 899 هـ) فأخذ عنه الأصول والمنطق والمعاني والبيان والعربية. وكان ماهرا في هذه المعارف بالإضافة إلى الحساب، كما تتلمذ للتنسي محمد بن عبد الجليل (ت 899 هـ)، وللشيخ السنوسي محمد بن يوسف بن عمر (ت 895 هـ)، أما تلامذته الذين أحصاهم ابن مريم فقد بلغوا تسعة تلاميذ، وأشهرهم ابن أخته الحاج بن سعيد، وأحمد بن موسى الشريف الإدريسي، ومحمد بن بلال المديوني، والولي العارف بالله عبد الرحمن اليعقوبي.9 ويذكر ابن عسكر أن ابن الحاج اشتغل بالقضاء وكان يلقب بقاضي بجاية.10 وتبعه في ذلك محمد بن محمد مخلوف، وهذا وهم وتخليط بينه وبين أبي العباس أحمد بن محمد البجائي11 الذي كانت تربطه علاقة صداقة بابن الحاج التلمساني، وكانا يتبادلان الرسائل. وقد طلب ابن الحاج الإجازة من شيخه ابن زكري في سنة 897 هـ فأجازه، ومن نص هذا الطلب الذي أورده ابن مريم كاملا بالرغم من طوله نستشف مقدار الثقافة الأدبية التي حازها ابن الحاج، فقد كان أدبيا يجمع بين الشعر والكتابة، ويتجلى مستوى شعره في مجموعة من المقاطع رواها له ابن مريم، ومنها القصيدة التي مدح

بها أستاذه ابن زكري وأدرجها ضمن طلب الإجازة، فقد أبانت تلك النصوص عن شاعرية فذة وتمكن من الفن الشعري في أرقى أشكاله. كما أن نثره غني بالصور المشرقة وبالانزياحات التي تليق بلغة الشعر. نقول هذا رغم أن ابن الحاج عاش في أواخر القرن التاسع والثلث الأول من القرن العاشر، وهي الفترة الزمنية التي ضعفت فيها الثقافة الأدبية، وجمدت القرائح، وتدنى مستوى الشعر والنثر ونضب معينهما.

وقد كان رجلا زاهدا معرضا عن الدنيا كما روي عن تلميذه اليعقوبي12، ولكنه كان ميالا إلى الظرف والتندر، ومن الملح التي يرويها في كتابه أنيس الجليس، حين كان بصدد شرح لفظة "المس" قوله: "ويحتمل أن يريد (الناظم) لفظة المص فإنها أنسب بالندي، وأبدل الصاد سينا، والصاد قد تبدل سينا. ومن ملح الأدباء في ذلك ما يحكى أن المبرد مرض مرة بيده، فعاده أصحابه وفيهم رجل يقال له: أبو صالح، فقال للمبرد مسح الله ما بيدك، يعني أذهب ما به. فقال المبرد: إنما يقال مصح، فقال أبو صالح الصاد تبدل سينا، فقال له المبرد: فأنت أبو سالح."13

ولم يكن أحمد بن الحاج أديبا كاتبا وشاعرا فحسب، ولكنه كان إلى جانب ذلك ناقدا محققا ولغويا متضلعا في علوم العربية وفي موسيقى الشعر. ونرى اهتمامه بالنقد وتحقيق النصوص في ثنايا كتبه وخاصة كتابه "أنيس الجليس". يقول في صدد حديثه عن منظومة ابن باديس التي شرحها: "واعلم أن هذه القصيدة ليست لي فيها رواية، ولا شاركت فيها من له دراية، ولا وقفت منها على نسخة عتيقة تكون النفس بصحتها وثيقة، ولا عثرت على شرح لها أمامي أجعله إمامي، ولكني أتحرى من ألفاظ نسخها ما أراه يليق بمقصدها، ومن معانيها ما يغلب على ظني أنه مراد مقصدها."14 فهذا النص بقدر ما يدل على تواضع المؤلف وأمانته العلمية بقدر ما يدل أيضا على اهتمامه بتحقيق

النصوص ونقدها، فهو قبل أن يعمل على شرح المنظومة قام بجمع ما توافر لديه من نسخها، والمقارنة بين النسخ بغية ترجيح رواية على أخرى أو إكمال نقص، ونراه يشكو من عدم عثوره على نسخة عتيقة للقصيدة، إدراكا منه لما للنسخة القديمة من قيمة علمية لدى المحقق، وما لها من دور في أداء النص كما أراده صاحبه. وتصادفنا في كتاب "أنيس الجليس" إشارات كثيرة إلى مقابلة ابن الحاج للنسخ ومقارنته بينها، كقوله: "...ومني: خبرٌ على النسخة الأولى، وبدلٌ من دار السلام على النسخة الأخرى."15، وقوله: "هكذا ساق الحكاية القشيري، وذكرها غيره على غير هذا الوجه، وأن الهاتف هو القائل أولا وأبو سعيد هو المجيب، وزاد نحو خمسة أبيات على ما تقدم..."16، وقوله أيضا: وهذا البيت لم يثبت في أكثر النسخ، وإنما رأيته في نسخة من النسخ التي رأيتها."17 وقوله: "الآخر: الذي رأيته في النسخ التي وقفت عليها ضبط الخاء بالفتح."18

كما تتجلى في ثنايا كتبه معرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها، ويكفي أن نشير هنا إلى أن شروحه التي وضعها تقوم كلها على بيان معاني الألفاظ اللغوية والرجوع في ذلك إلى أمهات كتب اللغة والمعاجم، وتفسير المعاني بالاعتماد على القواعد النحوية والصرفية والبلاغية باعتبارها أدوات إجرائية تستخدم للكشف عن البنية العميقة للنص.

ولا أدل على معرفته بخبايا موسيقى الشعر من قوله في بعض استطراداته: "ويحتمل أن يكون في هذا البيت الأرصاد وهو التسهيم، وهو يكون قبل القافية ما يدل عليها إذا علم الروي..."19، وقوله: "ومعنى اجتماع الخزم والخرم في هذا البيت أن لفظة ألا زائدة عن الوزن فتكون خرما، ثم ينتقص من الوزن بعدها حرف متحرك فتكون خزما."20 وقوله أيضا: "... وأكثر القصيدة غير مردفة. والردف حرف اللين قبل الروي والجمع بين المفرد وغيره وإن كان مسموعا من كلام غير العرب كقول الكسعي:

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذاً لقطعت خُمسي

تبين لي سفاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي.

فإن حذاق الشعر يجتنبونه حتى لا تكاد تجده في كلامهم لأنه من عيوب القوافي."21 ومثل هذه الإشارات نصادفها بكثرة في كتابه "أنيس الجليس"، فهو لا يفوت الفرصة أبدا من أجل شرح مسألة عروضية وضرب الأمثلة عنها وإيراد رأي العلماء فيها، وموقفه الخاص من آرائهم.

ولم يكن يسوق تلك المعارف المتنوعة على سبيل الاستطراد أو التعالم وإظهار المقدرة العلمية، ولكنه كان يوظفها في عملية الشرح، ويستعين بها على تقريب المعنى، وتعد دراساته النصية تلك مثالا لاستغلال مختلف العلوم اللغوية والبلاغية والعروضية من أجل تحليل النصوص وتفسيرها.

وقد كان المؤلف صريحا في تعامله مع غيره، فهو لا يتوانى عن نقدهم ومناقشتهم في أدب جم وصرامة علمية اعتمادا على الحجة والبرهان، حتى وإن تعلق الأمر بأساتذته، ومن ذلك قوله بعد أن أورد نصا لابن سيده: "وإنما ذكرت هذا لأن بعض أكابر شيوخنا رحمهم الله، وهو الشيخ الإمام سيدي أحمد بن زكري التلمساني رحمه الله غلط في هذا فتوهم أن يواما جمع يوم، فكان ينقض به على ابن عبد السلام في رده على ابن راشد في التفريق بين أيام وشهور، فيمن حلف ليهجرنه أياما وشهورا، فإن أياما جمع قلة فلا تحتمل الأبد، وشهورا جمع كثرة فيحتمل الأبد... فقال ابن عبد السلام: هذا إنما هو إذا كان اللفظ جمع قلة وجمع كثرة، وأما إن لم يكن إلا واحدا منهما فالنقل أنه يقع للقليل والكثير، يعني كأيام. فكان شيخنا –رحمه الله– يقول: قد سمع ليوم أيضا جمع كثرة وهو يوام، وكان يلح بهذا كثيرا في مجلسه، حتى اغتر به بعض أصحابنا، فقلده في ذلك،

فعارضته بكلام ابن سيده المتقدم."22، وكقوله أيضا: "وأظن أن ابن سيده تصحفت عليه الخلوات بالحلاوات أو بالعكس."23. ومن ذلك أيضا ما نراه من تعاليق على بعض ما صدر عن ناظم القصيدة، قوله في صدد شرح ألفاظ بيت: "أما: هكذا رأيت هذا اللفظ في كل ما وقفت عليه من النسخ، إلا أن في بعضها بتشديد الميم، وفي بعضها بتخفيفه، وكلاهما فيه مجال للنظر."24 وكتنبيهه على ركاكة أسلوب الناظم بقوله: "...ولم يعين من هو صاحب هذه القصة من الشيخين المذكورين، وكان يحتمل أن تعود إلى أقرب المذكور، وهو جاكير، إلا أنه اعتمد على عادته في مراعاة الترتيب في اللف والنشر."25 ولكن نراه في الوقت نفسه ينوه بالآراء السديدة، ويثني على أصحابها، كقوله: "وقد أحسن الناظم رحمه الله في تعبيره عن علم الحقيقة بـــ (تضلع)، وعن علم الشريعة بـــ (تدرع)، لأن التضلع عبارة عن القوة الباطنة المتصلة، وهي عظم الأضلاع، وامتلاء الجوف الذي ينشأ عنه في غالب العادة قوة المزاج وصحة البدن. والحقيقة يعبر عنها بعلم الباطن لأنه هو اعتقاد القلب الممازج للروح والعقل فتناسبا. والتدرع هو لبس الدرع كما تقدم، وهي قوة ظاهرة منفصلة يتقى بها ويتحذر، مشاهدة. والشريعة يعبر عنها بعلم الظاهر، لأنه اعتماد على الأسباب في ظاهر الأمور، والاعتقاد على خلاف ذلك فتناسبا أيضا."26

وهو بالإضافة إلى ذلك يتصف بالأمانة علمية، فنراه يعزو النصوص إلى أصحابها، ويوثقها، ويجتهد في ذلك اجتهادا كبيرا، ويعبر عن ضعف حيلته حين يعييه البحث ولا يصل إلى نتيجة، كقوله في شرح كلمة "الطوشي" التي وردت في بيت للناظم: "مادة هذه اللفظة لم أرها في كتب اللغة المشهورة كالصحاح والمحكم والمختصر وغيرها، وأظنها عجمية سمي بها."27 وكقوله في لفظة الضبس: "لم أر في معاني هذه اللفظة ما يناسب هذا

المحل، فأذكر عبارات اللغويين بلفظها."28 ثم يذكر ما قاله الجوهري بشأنها فابن سيده والزبيدي وابن طريف.

مؤلفـــــاته:

ومن مؤلفاته التي وصلتنا شرح القصيدة الشقراطيسية في مدح خير البرية، لعبد الله بن أبي زكرياء يحي بن علي التوزري الشقراطيسي (ت 466 هـــ)، و"الوردة في شرح البردة"29، وهو شرح هام لقصيدة البردة التي نظمها الإمام البوصيري في مدح النبي (ص)، ومما يتميز به هذا الشرح وفرة المعارف التي حشدها فيه المؤلف، وتنوع اللطائف الأدبية والأخبار وكثرة ما ضمنه من نصوص شعرية ونثرية، بعضها لا نعثر عليه في كتب أخرى، كما حلاه بتفسيرات لغوية وبلاغية ونحوية، فجاء الشرح جامعا بحق لفصوص من البيان العربي، ومجالا خصبا للدرس الأدبي والنقدي واللغوي.

وإلى جانب هذا الكتاب وصلنا كتاب آخر هو موضوع مداخلتنا هذه وهو "أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس". وواضح من العنوان أنه هو الآخر شرح لمتن، ولا غرابة في ذلك فقد عاش أحمد بن الحاج في عصر انصرفت فيه العقول إلى تراث الأجداد وتصدت له شرحا وتفسيرا وتلخيصا واختصارا، حتى صار ذلك تقليدا لا يكاد يخرج عنه عالم أو أديب.

كتاب "أنيس الجليس":

نظم أبو علي حسن بن أبي القاسم ابن باديس القسنطيني الجزائري (701-787هـــ)، أرجوزة سينية قوامها ثلاثة وتسعون بيتا، ضمنها ذكر بعض الأولياء مع الإشارة إلى كراماتهم وحكاياتهم، تأثرا بكتاب "روض الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر"

الذي اطلع عليه في مكتبة شيخ بيت المقدس صلاح الدين العلائي في رحلته إلى الحج. وقد سمى ابن باديس تلك الأرجوزة "النفحات القدسية"، وبدأها بقوله:

أَلاَ مِلْ إِلَى بَغْدَادَ فَهِي مُنَى النَّفس وحَدِّثْ بِهَا عَمَّنْ ثَوَى بَاطِنَ الرَّمْسِ
مِنَ أَبْدَالِهَا، أَقْطَابِهَا، عُلَمَائِهَا أُولِي الكَشْفِ والعِرْفَانِ والبَسْطِ والأُنْسِ
ومَنْ قَدْ أَتَاهَا نَازِحَ الدَّارِ مِنْهُمُ وضَاءَ لَهُ نُورُ الوَلاَيَةِ كَالشَّمْسِ

وظلت هذه القصيدة خاملة الذكر، قليلة الانتشار والتداول، لما اعتور أبياتها من تلميح وبُعْد عن التصريح، إلى أن قام أحمد بن محمد بن الحاج التلمساني لأسباب تعليمية بالدرجة الأولى بشرحها وتوضيح المبهم منها، وتفسير إشاراتها، فجعلها في متناول الجميع في كتاب لطيف سماه "أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس"، جمع فيه بين فنون ومعارف متعددة ومتنوّعة. فكان فيه الأدب واللّغة، والتّصوّف، والتّراجم، وحكايات رجال الصوفية، ولم يخل حتّى من الملح والنّوادر الأدبية.

وهو يعبّر عن توجّه في الكتّابة لفئة من الكتّاب في فترة ليست بالقصيرة من تاريخنا، عرفت فيه الصّوفية انتشارا في البلاد الإسلامية شرقا وغربا لأسباب كثيرة.

نسخ الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

ويتوافر لهذا النص المخطوط ثلاث نسخ معروفة: نسختان بالمكتبة القاسمية بزاوية الهامل ببوسعادة، وواحدة بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، وهي نسخ متفاوتة من حيث كمالها وسلامتها من الآفات التي تتعرض لها الكتب المخطوطة عادة كالخرم والبتر والطمس نتيجة العوامل البيئية، وبفعل الحشرات التي تعيش على الورق، وتعمل على إتلافه مع مرور الزمن وتقادم العهد ما لم تطهر وتحفظ في درجة حرارة مواتية.

1- النسخة الأولى: محفوظة بالمكتبة القاسمية لزاوية الهامل ببوسعادة، وقد كتبت بخط مغربي واضح، واشتملت على 68 ورقة. وفي كلّ وجه 25 سطرا، وفي كل سطر نحو 11 كلمة. ميّز الناسخ فيها أبيات القصيدة ببنط عريض أحمر، وتحصر في غالب الأحيان بين زخرفين، وقد اختلفت هذه الزخارف من بيت إلى آخر. وقد اتبع في أوراقها نظام التعقيبة، وهو ما يساعد على التأكد من ترتيب الأوراق وكمال النسخة. وتضمّنت بعض الصفحات إضافات لكلمات أو عبارات على الحاشية كانت قد سقطت من المتن، وهي بخطّ الناسخ وبالحبر نفسه الّذي كتبت به النسخة، وهو ما يوحي بأنّها استدراكات من النّاسخ نفسه. وبداية هذه النسخة بعد الديباجة: "الحمد لله الذي أسبغ على أوليائه نعمه ظاهرة وباطنة، وجعل قلوبهم أوعية توحيده ومواطنه ومراح سراج أسراره ومعاطنه... "، وآخرها قوله: "وكان الفراغ منها عشيّة يوم الجمعة في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة. عرّفنا الله خيره بمنّه وكرمه. كمل التأليف المبارك بحمد الله وعونه وصلّى الله على محمد وآله." ونرجح أن تكون هذه النسخة هي نسخة المؤلف نفسه لأن نسخها كان قبل وفاته بنحو ثلاث سنوات، ولأنه قال في آخرها: "كمل التأليف المبارك"، ولم يقل: "كان الفراغ من نسخه" أو ما شابه ذلك مما نراه في طرر النسخ المخطوطة.

2- النسخة الثانية: وهي الأخرى محفوظة بالمكتبة القاسمية، وكتبت أيضا بخطّ مغربي، وتضمنت 56 ورقة. في كلّ وجه من الورقة 25 سطرا. وفي كل سطر نحو 15 كلمة. كتب الشّرح بلون أسود، وكتبت أبيات القصيدة بلون أحمر تمييزا لها، واتبع فيها الناسخ نظام التعقيبة، وقد ميّز اسم المؤلّف في بداية المخطوط بلون أحمر أيضا.

وكان النّاسخ يشير في كل مرّة يكتب فيها بيتا متضمنا اسم علم إلى هذا الاسم في الهامش، حيث يكتب قف بالأحمر، ثمّ يكتب تحتها اسم العلم المشار إليه في البيت. وأهمى

نسخته بقوله: "وكان الفراغ من كتابتها بين ظهري يوم الاثنين السّابع من ربيع الثّاني من عام ثمانين ومائتين وألف 1280هـ."

3- النسخة الثالثة: وهي نسخة محفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، وكتبت بخطّ مغربي، وتضمنت 60 ورقة. وفي وجه كل ورقة 24 سطرا. وفي كل سطر نحو 11 كلمة. في الورقة الأولى نص مقحم، وهو خبر الإمام الشّافعي عند دخوله مصر وخلافه مع المالكية بخط بني فاتح، ثمّ بخطّ أزرق داكن التّعريف بالمؤلّف ونسبته إلى جبل بيدر خارج تلمسان. استعمل الناسخ حبرا بنّيا فاتحا للمتن وآخر يميل إلى الصّفرة وآخر أحمر وأحيانا أحمر قرميدي. ويستعمل الألوان للإشارات والتّنبيهات وللأبيات والكلمات الهامة البارزة. وهناك تعقيبات على الهوامش بلون أسود تكون أحيانا شرحا أو إضافة، أو تعليقا على عبارة. وفي نهاية السّطر الأوّل من كلّ ورقة يذكر كلمتين أو أكثر تعلو السّطر ثمّ يعود إلى السّطر الثاني. وانتهت النّسخة بقول النّاسخ: "كمل بحمد الجواد الرّؤوف الرّحيم على يد كاتبه عبد ربّه وأسير ذنبه وخويدم أوليائه المتمسّك بأذيالهم والمتوسّل بهم إلى من منّ الله عليهم بالمحبّة والتّعظيم والكرامة والتّكريم الحسن بن علي بن محمد يحي ...وكان الفراغ من كتبه يوم الثّلاثاء الأخير من شهر الله صفر عام أربعة وعشرين ومائة بعد الألف 1124. ثم يشير إلى من كتبه بقوله: كتبته لشيخنا وصهرنا سيدي محمّد بن محمّد المكني والمّاحي بن عبد الرحمن الرّاشدي أدام الله لنا وجوده لنفع المسلمين آمين."

ومن السهل نسبة هذا النص إلى ابن الحاج، ذلك أن ديباجة كل نسخة من نسخه الثلاث تنص على هذه النسبة، كما نسبه إليه حاجي خليفة في كشف الظنون، والحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف، والزركلي في الأعلام، وأبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي.

ومن الأدلة على أن هذا الكتاب لأحمد بن الحاج ذكره في ثناياه لابن زكري على أنه أستاذه مثلما أوردت المصادر، وإشارته إلى تلمسان على أنها بلدته، وذلك في صدد ترجمته لأبي مدين شعيب وكل ذلك ثابت في المصادر التي ترجمت له.

طبعـــــاتـــه:

طبع كتاب أنيس الجليس في المغرب ونشر نشرة عادية من غير تحقيق، كما طبعته دار الخليل القاسمي الجزائرية في إطار تظاهرة "الجزائر عاصمة للثقافة العربية"، بتحقيق الباحث الميسوم فضة. ولكن الكتاب لم ينل إلى الآن حقه من الدراسة والتحليل بالرغم من أهميته وقيمته العلمية والأدبية.

قيمته العلمية والأدبية:

يعد "أنيس الجليس" مؤلّفا جديرا بالاهتمام لأنه نتاج شخصية أدبية جزائرية، وبالتالي يمثل جزءا من ثقافتنا، ويعد أنموذجا لإسهام علماء تلمسان في الثقافة العربية الإسلامية، ولأنه دال على ثقافة المؤلف العميقة الواسعة التي تتجلى من خلال استفاضته في الملح والنوادر وعرض محفوظاته من الثقافة العربية القديمة، ومروياته الكثيرة التي جعلت من كتابه مصدرا هاما للدارسين المعاصرين، خاصة وأن الكثير من النصوص التي يرويها لا نعثر عليها في كتاب آخر، والعديد من تلك النصوص ترجع إلى المؤلف نفسه.

ولم يقف ابن الحاج عند هذا الحد بل نراه في شرحه لأبيات القصيدة السينية يستعين بطائفة من كتب اللغة والنحو والتفسير والأدب والبلاغة حتى جاء كتابه كشكولا

جمع شتى أصناف المعرفة الأدبية واللغوية، وقدم لنا مسائل التصوف وشطحات الصوفية ومناقبهم وكراماتهم في قالب أدبي رائق مستلطف.

وبقدر ما يعد كتابا في اللغة فإنه يعد أيضا كتابا في السير، فقد ترجم فيه ابن الحاج لأربعين شيخا صوفيا ممن عاشوا في القرنين الخامس والسادس الهجريين30، وهو العدد الذي أورده ابن باديس في منظومته تلميحا وإشارة، وظلت مجرد ألغاز لغير المختص العارف بميدان التصوف، رجاله ومصطلحاته، وما يزخر به من مناقب وكرامات الأولياء. ومن أشهر رجال تلمسان الذين ترجم لهم، أبو مدين شعيب، الشخصية المعروفة، وصاحب الضريح المعلوم، ويروي له عددا من الكرامات بعد أن يلاحظ بأن الناظم لم يشر إليها مطلقا. كما ترجم للشيخ أبي يعزى31، أستاذ أبي مدين.

ولم يكن ابن الحاج يعنى بتفاصيل حياة الشخصية التي يترجم لها، وكل ما كان يعنيه منها هو تفسير ما أومأ إليه الناظم من كراماتها وأفعالها وأخلاقها ومناقبها وورعها، وحظوتها عند الناس.

ومن جهة أخرى يعد كتاب أنيس الجليس نصا سرديا خاصا، أو تسريدا لنص منظوم، فهو يشتمل على قصص مؤطرة تتعلق كل واحدة منها برجل من رجال التصوف، تنتظمها قصة كبرى تعد إطارا عاما، سلك فيها المؤلف مختلف السرود الجزئية الأخرى، ويمكن النظر إليه على أنه من الأدب العجائبي العربي ذي المضامين الإدهاشية والخيال الطليق الذي يقذف المتلقي بخوارق تشده وتغويه بالقراءة32، وهو الأدب الذي تقف وراءه بدون شك خلفيات نفسية واجتماعية وفكرية. وتتجلى البنية العجائبية لهذا النص من خلال تعرضها لعالم فوق طبيعي داخل عالم مألوف، وعبر شخوص يتعرضون للتحول والتبدل، وبعبارة أخرى فإنه نص يقوم على خرق المألوف والطبيعي لعالم تختلط فيه

مخلوقات عديدة الجن والإنس والحيوان، الواقع والخيال، الشيء الذي يولد حيرة وترددا لدى المتلقي على حد تعبير "تودوروف"33.

وتكمن أهمية هذا النص –كغيره من النصوص الصوفية المماثلة له– في كونه يترجم بصدق للاوعي الجمعي، ويكشف عن المناطق المظلمة فيه. ويعمل على تأسيس علاقة مع القارئ هي علاقة التصديق بالمافوق طبيعي34.

ولا يتوانى المؤلف عن تحذير المتلقي من مغبة عدم التصديق بكرامات الأولياء الذين يقص عليه أخبارهم، إذ يقول مفسرا ما جاء مجملا في بيت للناظم: " أمر في هذا البيت بالصدق في محبة الأولياء وإخلاص الوداد لهم وحسن الاعتقاد فيهم والتصديق بما يظهره الله تعالى عليهم من الأحوال والآيات وتحسين الظن بهم بما يجريه الله تعالى على ألسنتهم من الكلمات بحسن التأويل بما أمكن، ولا يبادر إلى نسبتهم إلى البدعة والجهالة والزندقة والضلالة حتى لا يوجد عن ذلك محيد..."35، ويقول في موضع آخر بعد أن يورد حديثا للنبي (ص): "ويحتمل أن يكون الناظم أشار إلى هذا الحديث، لأن علماء السوء الغالب عليهم الطعن على الأولياء وصد العامة عن اعتقادهم كما هو معلوم من سيرهم من أول الزمان وهلم جرا."36

ويبدو أحمد بن الحاج من خلال مؤلفه هذا رجلا يعطي للتصوف بعده الاجتماعي التربوي، ويوظفه لخدمة الدين وتهذيب النفوس وإصلاح الرعية، ولا أدل على ذلك من روايته لبعض قصص بعض الأولياء وأهل الكرامات التي تبرز تسامحهم وذكاءهم في تربية الناس واستمالتهم إلى طريق الصواب. ومن ذلك قوله: "ذكر في هذا البيت الشيخ أبا محمد الشنبكي، وذكر أنه تلميذ ابن هوارا. وروي أنه كان يقطع الطريق مع أصحابه بالبطائح، فأخذوا قافلة في قرية ابن هوارا، وقتلوا من فيها واقتسموا ما نهبوا، ثم حاذى

زاويته وقت السحر، فقال لأصحابه: اذهبوا فقد أخذ الشيخ بمجامع قلبي، ولا أستطيع العدول عنه. فقالوا: ونحن معك. فتلقاهم الشيخ، فقالوا له: الحرام في بطوننا والدماء في سيوفنا. فقال: ذروها فقد قبلتم على ما فيكم. فتابوا وحسنت توبتهم."37

ومن ذلك أيضا تعليقه على موقف صدر من أحد المتصوفة وهو معروف الكرخي حين طلب منه بعض أصحابه أن يدعو على جماعة كانوا يشربون خمرا ويضربون بالدف ويلعبون، فرفع يديه فقال: "اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الأخرى. فقالوا: إنا سألناك أن تدعو عليهم . فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم.فروي أنهم عادوا بأجمعهم وتابوا."38

وقد علق ابن الحاج التلمساني على هذه الحكاية بقوله: "وهذا شأن العارفين الذين هم ورثة الأنبياء الذين بعثهم الله رحمة للخلق، إنما همتهم في هداية الخلق لا في إهلاكهم خلاف ما طلبه عامة المتنسكين والمتفقهين في هذا الزمان."39

ولا يخفى ما في هذا التعليق من نقد للمتشددين الذين يضيقون على الناس، وانتصار لمبدإ التسامح، والدعوة بالتي هي أحسن.

وفي الختام يبقى أحمد بن الحاج علما من أعلام الفكر والثقافة في تلمسان خلال القرن العاشر الهجري، ويبقى مصنفه "أنيس الجليس" من الكتب القيمة التي تحتاج إلى عناية أكبر ونشر أوسع ودراسة أعمق.

[13]- أنيس الجليس، الورقة 15 ظ.

[14]- أنيس الجليس، الورقة 1 ظ.

[15]- أنيس الجليس، الورقة 3 و.

[16]- أنيس الجليس الورقة 5 و، 5 ظ.

[17]- أنيس الجليس، الورقة 58 ظ.

[18]- أنيس الجليس، الورقة 44 ظ.

[19]- أنيس الجليس، الورقة 7 و.

[20]- أنيس الجليس الورقة 41 و.

[21]- أنيس الجليس، الورقة: 25 ظ.

[22]- أنيس الجليس، الورقة 57 ظ.

[23]- أنيس الجليس الورقة 25 و.

[24]- أنيس الجليس، الورقة: 41 و.

[25]- أنيس الجليس، الورقة 44 و.

[26]- أنيس الجليس، الورقة 18 و، 18 ظ.

[27]- أنيس الجليس، الورقة 28 ظ.

[28]- أنيس الجليس، الورقة 28 ظ.

[29]- حقق هذا الشرح وقدم له نصر الدين براشيش، ونال به درجة الماجستير من معهد اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر.

[30]- أنيس الجليس، الورقة 31 و.

[31]- ينظر أنيس الجليس، الورقة: 31 ظ – 33 و

[32]- ينظر كمال أبوديب، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي، دار الساقي (لندن).

[33]- ينظر كتابه: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، دار شرقيات، القاهرة 1994م.

[34]- الدكتورة سناء شعلان، السرد الغرائبي والعجائبي، نادي الجسرة الثقافي، قطر. ، وينظرأيضا: الدكتور إيوي علي خليل، عجائبية النثر الحكائي: أدب المعراج والمناقب، دار التكوين، دمشق، 2007. وكذا مصطفى موفن، بنية السرد العجائبي في ألف ليلة وليلة، الملحق الثقافي ليومية الثورة، دمشق، 2006.

[35]- أنيس الجليس، نسخة (أ) المكتبة القاسمية بزاوية الهامل، الورقة 13 و.

[36]- أنيس الجليس، الورقة 10 و.

[37]- أنيس الجليس، الورقة: 23 و.

[38]- أنيس الجليس، الورقة 25 و.

[39]- أنيس الجليس الورقة 25 ظ.